أثر العرب فى آداب الفروسية

سواء جرت الأمور فى طريق العلاقات التجارية أو ظل الروابط السياسية ، وسواء أسفرت تلك العلاقات عن حروب أو محالفات ، فما أكثر ما نشأ بين الشرق والغرب من دواعى الصلة وألوان المبادلة منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر . فمسلمو الأندلس والمسيحيون مثلا ، لم يمسكوا لحظة عن الاتصال فيما بينهم ، فعرف بعضهم بعضا ، وعاشوا على نحو ما نفس الحياة . . حياة البطولة أو حياة البطالة . . حياة السلام أو حياة القتال . ومن خلال فترات ذلك الصراع الطويلة التى كان الاستبسال فيها يتراوح بين الجانبين بصور متكافئة ، ومن تلك المهادنات التى كانت تتيح للفريقين أن يفرغا ردحا من الزمن لأعمال الفكر والصناعة تولد تقدير متبادل ظل ينمو مع الأيام . لقد كان مما يروق للعرب أن يشيدوا بشجاعة من أحاط بهم من المسيحيين الذين كانوا يطلقون عليهم دائماً اسم « الفرنجة » . . أيا كانت بلدهم . . كما لم يلبث « الفرنجة » حتى « فهموا حقيقة الإسلام ، وعرفوا فى المسلمين شعوبا تفوقهم تحضرا »[1] .

ولا عجب إذن أن يشتد إقبال الفرنجة — وهم الذين أخذوا عن

---

(١) لافيس (Lavisse) ، الجزء الثانى ، ص ٣٤٦ .

الشرقيين « كثيراً من مبتكراتهم وعاداتهم »[1] — لا عجب أن يقبلوا على استعارة بعض أساليب الفروسية وآدابها المترفة ، مما يلائم عبقريتهم خير ملاءمة وينسجم معها . أو ليس من الحق أن نتوسع فى تطبيق ملاحظة « فورييل » الجوهرية التالية حتى تشمل على الأقل إقليم « السبتيمانى » (La Septimanie) — أى كل هذه المنطقة الواقعة فى جنوبى « غالة » بين البحر الأبيض المتوسط و « السيفين » ، وبين جبال البرانس ونهر الرون ؟ — فلقد ظل هذا الإقليم كله أو بعضه ، زمنا طويلا تحت سيطرة العرب[2] ، يقول فورييل : « إن من الوقائع التى بلغت من التأكيد مبلغا يسترعى الانتباه ، ذلك النوع من الود والألفة الاجتماعية الذى نشأ منذ وقت مبكر بين العرب وأهل أسبانيا ، ولم تزده الأيام إلا نموا ، وتلك السماحة التى لان بها الأخيرون لسمو الأولين ، فاعتادوا كريم طباعهم ، وتبنوا لغتهم ، وآداب عيشهم ، بل ونهج خيالهم[3] » .

وقد يبدو هذا القول زعما جزافا ، ولكنه يستند إلى وقائع مادية ، كظهور صناعات عربية شتى فى جنوبى فرنسا ، ودخول بعض أساليب

(١) لافيس ورامبو : التاريخ العام ، الجزء الثانى ، ص ٣٤٦ .

(٢) بعد أن سيطر العرب على أسبانيا ، دخلوا للمرة الأولى إقليم السبتيمانى دخول للغزاة سنة ٧١٥. وفى سنة ١٠١٩ حاولوا بلا جدوى أن يستردوا مدينة « ناربون ». وفى خلال تلك الفترة التى تقع بين هذين التاريخين وتبلغ قرابة ثلاثمائة سنة ، لم يكد ينقطع القتال بين الغزاة من مسلمى أسبانيا وأهل ما دون جبال البرانس .

(فورييل : تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الأول ، ص ٤٢٠) .

(٣) فورييل (Fauriel) : تاريخ غالة الجنوبية ، الجزء الثالث ، ص ٥٩ .

الزراعة وآلاتها ، ووجود طائفة من الكلمات العربية — ولا سيما مصطلحات الفروسية منها — فى اللغة البروفنسية ، هذا إلى شيوع عادات عربية بعينها هنالك ، وما يوجد من تشابه بين الأدبين فى بعض الوجوه ، إلى غير ذلك من تلك الحفلات الاجتماعية والمجالس الأدبية والتقائض الشعرية . . إلخ . ونستطيع أن نتبين صور هذا التقارب ومظاهر تلك الألفة الاجتماعية فى كتاب « تاريخ الشعر البروفنسى »[1] للأستاذ « فوريل » حيث أجاد عرضها وتفصيلها فى ذلك المؤلف الواعى حقا ، والذى نحيل عليه من يبتغى المزيد ، ونكتفى بأن نورد هنا خلاصته ، مذكرين بأن جنوبى فرنسا كان مهد نظام الفرسان فى الغرب ، فهو يقول :

« هناك ما يدعونا إلى الحكم بأن العرب الأندلسيين قد أثروا بما ضربوه من أمثلة حياتهم تأثيرا فعالا فى الحضارة الأخلاقية والاجتماعية التى انتشرت فى جنوبى فرنسا ، ولا سيما ذلك الجانب المسيطر المتميز من تلك الحضارة وهو ما يختص بمبادئ الفرسان وآدابهم ونظمهم »[2] .

ولكى نقف على الأثر العربى فى روح الفروسية ونقدّر مدى تغلغله — لا فى جنوبى فرنسا فحسب ، بل فى فرنسا بأكملها وفى الأمم المسيحية جمعاء — فإنه يكفى أن نلقى نظرة على « قصص الفروسية » . ومن المعروف

---

(١) فوريل : تاريخ الشعر البروفنسى ، الجزء الثالث ، ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) فوريل : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٧ .

أن « قصص الفروسية » كانت فى العصور الوسطى هى الغذاء الروحى الوحيد للأشراف بل ولسواد الشعب أيضاً ، وكانت مرجع المقاتلين الذين اتخذوا من أبطالها قدوة لهم ، وراحوا يستمدون منها دروس العزة والفضل والأدب . على أن « تاريخ توربان » (Turpin) — وهو الذى سبق قصص الفروسية جميعا — يؤكد (فى الفصل العشرين) أن « شرلمان » قد تقلد مرتبة الفروسية على يد جالافرون إمير (Galafron Emir) ذلك الأمير الأندلسى الذى كان سيد كوليتو (Coleto) فى البروفانس ؛ بينما تشهد إحدى الأقصوصات الشعبية فى القرن الحادى عشر بأن صلاح الدين — وهو بطل شديد البأس ومسلم عظيم الولاء — قد قلده الأمير « هوج » أمير طبرية ، مرتبة الفروسية . ونرى فى النص الألمانى لقصة برسفال (Perceval) أن أحد الفرسان المسيحيين لم يتردد فى الالتحاق بخدمة « باروك دى بلداك » (Baruc de Baldac) أى « خليفة بغداد »[1] . وكذلك كان شأن « برناردى كاربيو » (Bernard de Carpio) أقدم أبطال أسبانيا المسيحية — فإن « بطولته لا تكاد تتجلى إلا فى جيوش الأندلسيين العرب . . . كما تنسب أقدم أغانى الأسبان وأوليات قصائدهم من القرن الثانى عشر — من مثل قصيدة « السيد » — تلك الآداب الفرسانية

---

(١) صحيفة الديبا (Journal des Débats) ٢١ يناير ١٨٣٤ ، مقالة س . و. دى شليجل (S.W. de Schlegel) .

للعرب »[1] . ثم يقول رينو : « بل وكان الأندلسيون العرب يشتركون فيما يخوضه المسيحيون من قتال ونزال فى كل مكان من الأرض تلوح منه أكاليل الغار »[2] . وبديهى أن تلك الأشعار لم تنزل العرب تلك المنزلة إلا لما رآه أصحابها من جدارتهم حقاً بمطاولة الصناديد من شخصيات الأساطير . ولكن ، هل كان الشعراء يسعون — عندما رفعوا من قدر الفرسان العرب وعندما جعلوا منهم نماذج للنبل والكرم — إلى رسم صورة صادقة للمقاتل العربى ؟ أم أن ذلك لم يتجاوز من قريحتهم خيالا يهدف إلى إثارة حمية الفرسان المسيحيين وحثهم على الاقتداء ببطولات واقعية أو وهمية قام بها غرماؤهم ؟ ومهما يكن الجواب عن هذا السؤال ، فإن النتيجة واحدة ؛ وهى أن قارئ قصص الفروسية أو سامعها ، والراوية أو رب القصر الذى كانت تروى فيه ، والقوم من شريف إلى صعلوك — كانوا جميعاً مؤمنين ببسالة أعدائهم وسموهم ، وكانوا يروضون أنفسهم على أن يلحقوا بهم أو يفوقوهم فى الكرم وفى الشجاعة .

وأبلغ عبرةً من تلك الأغانى والأقاصيص ، وأوثق دلالةً من معانيها ، أمثلة المروءة التى ضربها العرب فى كل مناسبة وفى كل مكان لمعاصريهم من أهل الغرب . وأى هذه الأمثلة عسانا نذكر ؟ ومن أى عصر نسوقها أو من أى بلد نتخيرها ؟ أمن أسبانيا (حوالى عام ٧٥٥)

---

(١) سيسموندى : فى أدب جنوبى فرنسا . الجزء الأول ، ص ٢٧٠ وما يليها .

(٢) رينو (Reinaud) : غزوات الأندلسيين فى فرنسا ، ص ٣١٤ .

حيث نشهد الوالى عبد الملك يطعن ابنه الفتى برمحه إذ رآه يتقهقر أمام جيش يفوق عدد جيشه ؟[1] . أم من موقف عبد الرحمن الثالث النبيل إذ يؤمن عدوه « سانش » أمير « ليون » حتى يتمكن من الذهاب إلى قرطبة لاستشارة الأطباء العرب .. فى حين يستضيف الملك «بطرس القاسى» ملك « قشتيلة» عام ١٣٦٠ ، أباسعيد ملك غرناطة فتعجبه جواهره التى كان يتحلى بها فيقتله غدرا وهو فى ضيافته ليستولى عليها ؟ [2] .

أم من قبل ذلك بقرن من الزمان — عام ١٢٨٠ — ؟ حيث يتخلى عن الملك « ألفونس الحكيم » رعاياه ، ويستغيث بيعقوب ملك مراكش ، فيعبر إليه يعقوب البحر ويلتقى به فى « زارا » ؛ وفى ذلك اللقاء المشهود ، يريد الأمير القشتيلى التعس أن ينزل عن منزلة الصدارة والشرف للملك الذى أقبل لنجدته ، فيقول له يعقوب : « إن لك مجلس الشرف ما دمت مغلوباً على أمرك . . ولقد أتيتك لأعينك على تأديب عاق ، فمتى أديت هذا الواجب ، وأصبحت أنت سعيدا قويا ، نازعتك كل شىء وناصبتك العداء من جديد »[3] .

أم عسانا نتخير تلك الأمثلة من مصر ؟ . . . فنعيد إلى الذاكرة

---

(١) لويس فياردو (L. Viardot) : تاريخ العرب والأندلسيين، الجزء الثانى ، ص ١١٨ و ١٩٦ و ٢٧٨ .

(٢) جوستاف لوبون (G. Le Bon) : حضارة العرب، ص ٣٨٧ وما يليها .

(٣) فلوريان (Florian) موجز تاريخى عن الأندلسيين ، ص ٧٧ انظر فى الكتاب ذاته لمحات أخرى من هذا القبيل ص ٧٦ و ٨٥ الخ .

موقف نور الدين حين امتنع عن انتهاز فرصة موت « بودوان » لاستعادة « عسقلان» قائلا : « إنى لو فعلت ذلك لأهدرت الإنسانية واستهنت بآلام شعب يبكى مولاه ، ولأخللت بشرفى الشخصى إذ أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم »[1] .

ولعلنا حين نقابل ما اقترفه « ريتشارد قلب الأسد » عندما دفعه جبنه إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا (سنة ١١٩١) — رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحريتهم[2] — بما أتاه صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس (سنة ١١٨٧) ، فلم يقنع بمنح أهل المدينة التى استردها حياتهم وحريتهم ، بل أمر بتوزيع الإعانات والهبات على المعوزين من المسيحيين ، لعلنا حين نعقد تلك المقارنة نرى مثلا واضحا لما نحن بصدده . ثم يجرنا هذا إلى الحديث عن معركة يافا وصلاح الدين يخوض غمارها ضد ريشار ، فيبصره صلاح قد فقد حصانه فيبعث إليه جوادين كريمين إذ يرى أنه لا يليق بالمحارب المغوار أن يقاتل راجلا[3] . . على أنه ما الداعى لحشد مثل تلك الأمثلة والمؤرخون جميعاً يقررون أنه « لا حاجة بأولئك الذين درسوا تاريخ الحروب الصليبية إلى أن نعرفهم

(١) ماران (C. Marin) : تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا . الجزء الأول ، ص ٧٨ و ٩٥ .

(٢) ماران : المرجع السابق . الجزء الثانى ، ص ٣٠٦ و ٣٠٧ . ستانلى لين بول (Stanley Lane Poole) : صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس ص ٣٠٦ .

(٣) المرجع الأخير ، ص ٣٥٣ .

أن جميع محامد الحضارة — من علو النفس والتسامح والمروءة الحقيقية والأدب — كانت فى أثناء تلك الملاحم إلى جانب العرب »[1] ؟ على أن ذلك لن يمنعنا من أن نورد فيما يلى هذه القصة الطريفة :

كان ألفونس الثامن — الذى اتخذ فيما بعد لنفسه لقب الإمبراطور — يحاصر سنة ١١٣٩ قلعة « العريجة » . وقد جمع والى قرطبة بعض الفرق لنجدة تلك الحامية ، ولكنه بدلا من أن يهاجم جيش قشتيلة الذى كان يفوق جيشه عددا ، رأى أن من الأيسر عليه أن يضطر ذلك الجيش إلى رفع الحصار باستدراجه إلى أمر آخر ؛ فدار فى حذر حول معسكر المسيحيين وأمعن السير حتى بلغ أسوار طليطلة ، حيث كانت الملكة « بيرانجير » (Berenguea) تقبع فى عقر دارها تعوزها وسائل المقاومة . فخطر لها وهى فى تلك الضائقة أن ترسل إلى القائد العربى من يهيب به أن لو كان يريد مقاتلة المسيحيين فليذهب إليهم تحت أسوار « العريجة » حيث ينتظره زوجها ، وأما أن يشن حربا على امرأة ، فذلك ما لا يجدر بفارس باسل كريم أن يقدم عليه. ونجحت خطتها ، واستسلم القائد العربى المدقق إزاء هذا الدفاع الغريب ، فاعتذر عن خطئه ، وود لو يحظى بتحية الملكة قبل رحيله . فطلعت عليهم « بيرانجير » وسط حاشيتها فوق الأسوار ، ومر أمامها الفرسان العرب وهم آخذون فى الرحيل وكأنهم فى مباراة . بينما كان — فى هذا الوقت نفسه ، وفى أثناء هذا

(١) المرجع الأخير ، ص ٣٠٧ .

الاحتفال الودى – قد استولى ألفونس على قرية العريجة »[1] .

أفليس من الحق إذن – بعد كل هذا – أن نؤكد أن العرب قد أثروا – من حيث حضارتهم وبما ضربوا من أمثلة – تأثيراً موفقا فى الروح والعواطف الفرسانية[2] . . تأثيراً كان كله من نسج دقيق رقيق أنيق ؟ . .

ومن فرط ما لاحظ الفرسان أن أولئك الذين كانوا يلقبونهم « بالكفار » – ممن كانت الكنيسة تأمر بمقاتلتهم دون هوادة – إنما هم أبطال وكرام فى معاملة الخصم ، سرت إليهم الرأفة ، وأصبحوا أشد إنسانية . وهكذا تعلم أولئك الفرسان فى مدرسة العرب أن يكونوا سمحاء كبار النفس فى مخاصمة العدو ، مسيحيا كان أو وثنيا . لقد رأوا كيف يرعى العهد أولئك « الذين لم يتلقوا المعمودية » فتعلموا أن يصونوا جميع عهودهم ، لا تلك العهود التى قطعوها رسميا وأقسموا على الوفاء بها فحسب . ورأى الفرسان لدى أعدائهم ذلك الازدراء العيوف للثروة والغنى ، ولمسوا فيضا من كرم ضيافتهم ، وجودا لم يتخيلوا مثله ، فتعلموا أن يغدقوا فى صدقاتهم وأن يسخوا فى هباتهم . ورأوا رعاية العرب لحرمة النساء[3] بل ولحرمة أقلهن شأنا – أو لم تصبح بعض الجوارى أميرات ؟ – فتعلموا

---

(١) لويس فياردو : المرجع المذكور .

(٢) فورييل : المرجع المذكور . الجزء الثالث ، ص ٤٣٣ .

(٣) سيسموندى : المرجع المذكور ، ص ٩٦ .

جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٢٨ .

الشهامة والرقة لا نحو السيدات النبيلات فحسب ، بل نحو النساء جميعاً على اختلاف طبقاتهن . وهكذا تهذبت أخلاق العصور الوسطى الجافية وتطورت عندما اتصلت بالعبقرية العربية ، فلانت ولطفت ورقت وسمحت[1] . وذلك — فى عبارة موجزة — هو أثر العرب فى الفروسية الغربية .

ويذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا — وهم فى رأينا مسرفون — إذ يؤكدون أن الفروسية برمتها — منظمة وأخلاقا — عربية الأصل . ولو ذهبنا نحن مذهبهم ، لباتت الفروسية الغربية نسخة من منظمة مماثلة كان يعتز بها العرب منذ عصور خالية ندت عن التاريخ المأثور ، وذلك موضوع جدير بالتمحيص .

---

(١) بارتيلمى سانتيلير : محمد والقرآن .